

ضريبة الذل (يا ليت قومي يعلمون) .. بقلم الشهيد سيد قطب



الاثنين 29 أغسطس 2022 01:55 م

بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة، لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة، رخيصة، مفرعة، قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، {يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون:4]، {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ} [البقرة:96].

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة، يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون.

وإنهم ليحسبون أنهم ينالون في مقابل الكرامة التي يبذلونها قربي ذوي الجاه والسلطان حين يؤدون إليهم ضريبة الذل وهم صاغرون، ولكن كم من تجربة انكشفت عن نبذ الأذلاء نبذ النواة، بأيدي سادتهم الذين عبدوهم من دون الله، كم من رجل باع رجولته، ومرغ خديه في الثرى تحت أقدام السادة، وخنع، وخضع، وضحي بكل مقومات الحياة الإنسانية، وبكل المقدسات التي عرفتها البشرية، وبكل الأمانات التي ناطها الله به، أو ناطها الناس... ثم في النهاية إذا هو رخيص رخيص، هَيِّنْ هَيِّنْ، حتى على السادة الذين استخدموه كالكلب الذليل، السادة الذين لهت في إثرهم، ووَضَوْصَ بذنبه لهم، ومرغ نفسه في الوحل ليحوز منهم الرضاء!

كم من رجل كان يملك أن يكون شريفًا، وأن يكون كريمًا، وأن يصون أمانة الله بين يديه، ويحافظ على كرامة الحق، وكرامة الإنسانية، وكان في موقفه هذا مرهوب الجانب، لا يملك له أحد شيئًا، حتى الذين لا يريدون له أن يرعى الأمانة، وأن يحرس الحق، وأن يستعز بالكرامة، فلما أن خان الأمانة التي بين يديه، وضعف عن تكاليف الكرامة، وتجرد من عزة الحق، هان على الذين كانوا يهابونه، وذل عند من كانوا يرهبون الحق الذي هو حارسه، ورخص عند من كانوا يحاولون شراؤه، رخص حتى أعرضوا عن شرائه، ثم تُبَدَّ كما تُبَدَّدُ الجيفة، وركلته الأقدام، أقدام الذين كانوا يَعِدُونَهُ ويمنونه يوم كان له من الحق جاه، ومن الكرامة هيبة، ومن الأمانة ملاذ.

كثير هم الذين يَهْوُونَ من القمة إلى السَفْحِ، لا يرحمهم أحد، ولا يترحم عليهم أحد، ولا يسير في جنازتهم أحد، حتى السادة الذين في سبيلهم هَوُؤًا من قمة الكرامة إلى سفوح الذل، ومن عزة الحق إلى مَهَاوي الضلال، ومع تكاثر العظائم والتجارب فإننا ما نزال نشهد في كل يوم ضحية، ضحية تؤدي ضريبة الذل كاملة، ضحية تخون الله والناس، وتضحى بالأمانة وبالكرامة، ضحية تلهت في إثر السادة، وتلهت في إثر المطعم والمطعم، وتلهت وراء الوعود والسراب... ثم تَهْوِي وتَنزَوِي هنالك في السفح خَائِعَةً مَهِيئَةً، ينظر إليها الناس في شماتة، وينظر إليها السادة في احتقار.

لقد شاهدتُ في عمري المحدود -ومازلت أشاهد- عشرات من الرجال الكبار يخنون الرعوس لغير الواحد القهار، ويتقدمون خاشعين، يحملون ضرائب الذل، تُبْهِط كواهلهم، وتحنى هاماتهم، وتلوي أعناقهم، وتُنَكِّس رؤوسهم... ثم يُطْرَدُونَ كالكلاب، بعد أن يضعوا أحمالهم، ويسلموا بضاعتهم، ويتجردوا من الخُسْتَيْنِ في الدنيا والآخرة، ويمضون بعد ذلك في قافلة الرقيق، لا يَخْسُ بهم أحد حتى الجلاد.

لقد شاهدتهم وفي وسعهم أن يكونوا أحرارًا، ولكنهم يختارون العبودية، وفي طاقتهم أن يكونوا أقوياء، ولكنهم يختارون التخادل، وفي إمكانهم أن يكونوا مرهوبي الجانب، ولكنهم يختارون الجبن والمهانة... شاهدتهم يهربون من العزة كي لا تكلفهم درهمًا، وهم يؤدون للذل دينارًا أو فنطارًا، شاهدتهم يرتكبون كل كبيرة ليرضوا صاحب جاه

او سلطان، ويستظلوا بجاهه او سلطانه، وهم يملكون ان يزهّبهم ذوو الجاه والسلطان! لا، بل شاهدت شعوبًا بأسرّها تُسْفِقُ من تكاليف الحرية مرة، فتظل تؤدي ضرائب العبودية مرات، ضرائب لا تُقاس إليها تكاليف الحرية، ولا تبلغ عُشْرَ مِعْشَارِهَا، وقديماً قالت اليهود لنبينا {يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة:24] فأدّتْ ثمن هذا النكول عن تكاليف العزة أربعين سنة تتيه في الصحراء، تأكلها الرمال، وتذللها الغربية، وتشردها المخاوف... وما كانت لتؤدي معشار هذا كله ثمنًا للعزة والنصر في عالم الرجال.

إنه لابد من ضريبة يؤديها الأفراد، وتؤديها الجماعات، وتؤديها الشعوب، فإما أن تؤدي هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية، وإما أن تؤدي للذلة والمهانة والعبودية، والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التي لا مفر منها، ولا فكاك.

فإلى الذين يَفْرُقُونَ من تكاليف الحرية، إلى الذين يخشون عاقبة الكرامة، إلى الذين يَمْرُغُونَ خدودهم تحت مواطئ الأقدام، إلى الذين يخونون أماناتهم، ويخونون كراماتهم، ويخونون إنسانيتهم، ويخونون التضحيات العظيمة التي بذلتها أمتهم لتتحرر وتتخلص.

إلى هؤلاء جميعًا أوجه الدعوة أن ينظروا في عبر التاريخ، وفي عبر الواقع القريب، وأن يتدبروا الأمثلة المتكررة التي تشهد بأن ضريبة الذل أفدح من ضريبة الكرامة، وأن تكاليف الحرية أقل من تكاليف العبودية، وأن الذين يستعدون للموت توهب لهم الحياة، وأن الذين لا يخشون الفقر يرزقون الكفاية، وأن الذين لا يزهّبون الجاه والسلطان يزهّبهم الجاه والسلطان. ولدينا أمثلة كثيرة وقريبة على الأذلاء الذين باعوا الصمائر، وخانوا الأمانات، وخذلوا الحق، وتمرغوا في التراب ثم ذهبوا غير مأسوف عليهم من أحد، ملعونين من الله، ملعونين من الناس، وأمثلة كذلك ولو أنها قليلة على الذين يابون أن يذلوا، ويأبون أن يخونوا، ويأبون أن يبيعوا رجولتهم، وقد عاش من عاش منهم كريمًا، ومات من مات منهم كريمًا.